أفاضل القوم ينقمون على حركات الاستهتار فى المجتمع وآثار المجون فى الأدب ، ولكنهم كانوا مغلولى الأيدى لا يستطيعون عن عقيدتهم دفاعا ، وألف بعضهم حينا جمعيات للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والضرب على أيدى العابثين فأصابهم من بطش السلطان وتعقبه ما لم يصب أولئك العابثين .

وكانت الملكية فى الدول الاسلامية أحيانا تشجع التهاجى بالمقذعات بين الشعراء شغلا لهم وللجمهور عن شؤون السياسة وظل بشار يتحدى عقائد الناس ويسخر من فضائلهم وينال من أعراضهم وهو آمن معافى ، حتى تطاول على عرض الخليفة ذاته فكان فى ذلك تلفه . ولما لم يكن للناس من قوة الرأى العام حارس ومدافع ، عمد من استطاع منهم بحول أو مكيدة إلى الانتقام بنفسه ممن تعرض له بالفحش ، فلقى كل من المتنبى وابن الرومى حتفه على يد مهجوه . هكذا استفحل المنكر فى المجتمع والاباحة فى الأدب من أثر ذيوع الترف وتحكم الملكية المطلقة ، رغم أن المجمع كان مجتمعا إسلامياً والدولة كان أساسها دينيا ، وكان الأجدر أن أدبا يزدهر فى ظل الدين الاسلامى الحنيف ، يكون أعف الآداب لفظاً وأشرفها قصداً .

وقد تقدم القول أن سريان ذلك الفساد فى كيان المجتمع الاسلامى عقب الفتوح أدى إلى انحطاط المرأة واختفائها من المجتمع ، وكان ذلك من دواعى انتشار هجر القول فى الأدب فان وجود المرأة فى المجتمع عامل تجمل وتوقر وتعفف فى المسلك والمقال ، وهو عامل سعد به الأدب الانجليزى فكان من أسباب تساميه الخلقى ، وظلت النظرة إلى المرأة فى الانجليزية سامية عفيفة ، وظلت صحبتها منبع وحى وداعية تكرم لدى الأدباء ، وقد قال ستيل عن صاحبة له فاضلة إن محادثتها هى ثقافة قائمة بذاتها

فالأديب الانجليزى لا يتمدح بالمحامد ولا يجاهر بالمباذل ، لأن طبعه لا يستسيغ هذا ولا ذاك ، ومجتمعه لا يقبلهما منه ، ثم هو لا يهجو غيره ولا يفحش فى الهجاء . وإنما يصور أخلاق أفراد المجتمع بما فيها من فضائل ومعايب ، ويتهكم بالمتشدقين بالفضائل والمتظاهرين بالعلم أو بالثروة أو بالعظمة ، أى بالمسرفين فى كل شىء المجاوزين حد القصد والاعتدال ، والتوسط الذى هو خير الأمور ، فالاعتدال شعار الانجليزى فى مسلكه وفى أدبه ، والتطرف يثير سخره واحتقاره ، وهذا الميل منه واضح فى مواضيع الآداب الفكاهية ، وضوحه فى أغراضه الجدية

فخرى أبو السعود

ذكريات . . .

للأستاذ على الطنطاوى

هما موقفان لا أزال أذكرهما ، أو تغمض عينى كف الغاسل:

أما الأول فعلى ضفاف بردى ، فى الثامن والعشرين من سبتمبر ١٩٣٦

وأما الثانى فعلى شاطىء دجلة فى الخامس من مايو ١٩٣٧

***

كان بردى يخطو على مهل ، متهللا منطلق الوجه ، يرد على الشمس الوليدة أول تحياتها ، وهى تغمره برشاش من عطر أشعتها الحمراء ... وكنت فى السيارة الفخمة ، أنظر إلى جموع المودعين من الصحب والرفاق ، الذين خرجوا من بيوتهم فى هذا الصباح ، ليودعونى قبل نزوحى إلى العراق فأقلب النظر فى وجوههم ، شاكراً لهم فضلهم ، حزيناً لفراقهم ، ثم أتأمل بردى صديق الصبا وسمير الوحدة ونجى النفس ، فأبصر فى خلاله ظلال الحور والصفصاف تميس دلا وتيهاً ، وأرى ظلال المآذن البعيدة السامقة تضطرب فى الماء فأبصر فيها ذكرياتى حية تطالعنى وتحدثنى ، وتعيد على مسمعى قصة حياتى ، وتتلو علىّ تاريخى فأحس بلوعة الفراق ، وأشعر فى تلك الساعة بأنى أحب دمشق ... دمشق مثوى ذكرياتى ، ودنياى من الدنيا ، وغاية أملى فى حياتى ... ثم يطوى المرج هذه الصور كلها ، ولا يدع حيال عينى إلا صور إخوتى ، فأتأملها بعين دامعة وقلب واجف خائف من الفراق ، ثم تجتمع كلها فى وجه واحد ، هو أحبّ الوجوه إلىّ وأدناها إلى قلبى ... وألمح فى الماء مشهداً طال عليه العهد ونأى به الزمان ، فأراه ينفض عنه غبار السنين العشر ، ويعود حياً جديداً ...

... رأيتنى فى محطة الحجاز ، آية الفن الحديث فى دمشق ، والمحطة مائجة بأهلها كما يموج البحر بمياهه ، فمن مسافر مجل ، ومن مودع باك ، ومن بائع يصيح ... ومن آت وذاهب ، وطالع ونازل ... وكنت منزوياً فى ركن من أركان القطا

المسافر إلى حيفا ، وإلى جانبي أختي الصغيرة... أنظر إلى بعيد ، فأرى هناك ، فى أخريات الناس امرأة تمسك بيديها طفلين ، ملفعة بملاءة لا تبدى منها شيئا ، ولكن وراء هذا القناع الأسود عينين تفيضان بالدمع عالقتين بمكاننا من القطار . وخلال تلك الضلوع قلبا يخفق شوقا ، ويسيل دمعا ، ووراء هذه الوقفة الساكنة الهادئة ناراً تضطرم فى الجو ، وزلزالا شديدا يدك نفسها دكا ...

وصفر القطار الذى يحملنا إلى مصر ، فازداد قلبنا خفقانا واضطراباً ، ثم قذف إلى الجو بدخانه كأنما هو حي قد أخذ موقف الوداع ، فزفر زفرة الحزن الدفين ، والألم الحبيس ثم هدر وسار وراحت المحطة تبتعد عنها وعنى عالقة بيد تلك المرأة التى تلوح لى بمنديل أبيض ، حتى غاب عنى كل شيء ...

هنالك تلفت فرأيتنى وحيداً ، ورأيت القطار يحدلينأى فى عن أهلى وبلدى ، فهممت بالقاء نفسى من نافذة القطار ـ لولا أن تعلقت بى أختى التى كانت على صغرها أكبر منى ، وعلى أنوثتها أقوى وأجلد ...

أردت أن ألقى بنفسى لأنى لم أكن أتخيل أن فى استطاعتى الحياة يوماً واحداً بعيداً عن أمى التى كان تعلقها بنا ، وتعلقنا بها لا يشبه ما نرى من الأمهات والأبناء ، وكان ... آه ماذا تفيد (كان) ، وقد كان ما كان ؟ ...

تلك هى أمى ، التى مر على (غيابها) عنى سنوات طوال ، ولكنى أحس كأن الحادثة كانت أمس ـ فتحز فى نفسى ولا أطيق أن أكتب عنها حرفا

تلك هى أمى التى كانت لى أما وأباً ، بعد أبى رحمهما الله ، وكانت حبيبة وكانت أستاذة ، وكانت دنياى وكانت آخرتى ... وكانت أمى !

تلك هى أمى التى فوجئت كما تفاجأ الشجرة الغضة الفينانة فى ربيعها الزاهر ، حين تعصف بها العاصفة فتدعها جذعا مقطوعا جافا ...

تلك هى أمى التى مانسيتها ـ علم الله ـ أبداً ، ولم أذكرها أبدا ، كأنها تملأ نفسى ولكنى لا أجرى ذكرها على لسانى .

أراها فى أحلامى حية فأشعر كأنى عدت حيا ، وأهم بعناقها وأفتح عينى فأجد على وجهى حرّ لطمة الدهر الساخر ، ولكنى أحمل اللطمة . وأغضى على القذى ، ولا أخبر إخوتى بشيء ، لئلا أذكرهم ما هم ناسون ، أو أجدد لهم بالمصيبة عهداً . فأهمل ذكرى أمى ويهملونه ... ولعل كل واحد منهم يحس مثلما أحس ويكتم مثلما أكتم !

ذكرت ذلك ساعة الوداع ، لأنى كنت متألما ، وليس لآلامى كلها إلا معنى واحد هو أنى أذكر وفاة أمى ، ذلك هو الألم عندى لا ألم سواه

فلما صحوت نظرت فى وجوه المودعين فلمحت وجه أمى مرة ثانية ، ولكنى لمحته حياً ماثلا فى وجوه إخوتى الأحياء . فودعته بدمعة من العين ، وابتسامة على الفم ، وإشارة بالكف ، ثم سارت بنا السيارة تطوى الأرض وتستقبل الصحراء ...

ذلك هو الموقف الأول !

* * *

أما الموقف الثانى فقد كان على شاطىء دجلة فى الهزيع الأول من الليل ؛ وكانت محطة بغداد الغربية زاخرة بعشرات من خير شباب بغداد وزهرة فتيانها تركوا دروسهم وامتحانهم القريب وخرجوا من دورهم فى هذا الليل ليودعوا صديقاً أحبهم وأحبوه ، وأخلصوا له الحب وأخلص لهم ... ذلك الصديق هو أنا ، وأولئك هم تلاميذى بل إخوتى ، جاءوا يودعونى لا قياماً بواجب رسمى ، ولا رغبة فى ثواب ولا رهبة من عقاب ، ولكن وفاء وحباً . والحب أجمل ما فى الوجود ؛ والوفاء أقدس ما فيه بعد الايمان... وكنت مستنداً إلى نافذة القطار الذى سيحملنى إلى البصرة ، أصغى إلى خطبهم وأشعارهم التى صبوا فيها عواطفهم ، وكتبوها بمداد قلوبهم ، أتأمل فلا أرى (والله) إلا بردى ودمشق وإخوتى

وغبت عنى فى شبه ذهول ، فما انتبهت إلا وأنا وحيد فى القطار ، أضم إلى قلبى هذه الهدية التى قدمها الى تلاميذى . وأطللت من النافذة فلم أجد إلا الظلام ...

* * *

لما دخلت عليهم الصف أول مرة كنت مشتاقاً إلى بلدى

كارهاً لغربتي متألماً ملتاعاً ، فلم أر في الصف إلا عيوناً جامدة وقلوباً معرضة وأفواهاً مغلقة ، وكانوا عندي من العدم لأنه لم يكن لهم في ذاكرتي وجود. ولكن لم ألبث أن وضعت بين أيديهم قلبي فأحببتهم كما يحب الأخ أخاه ، (أحبهم في مجموعهم لا أحب واحداً منهم ...) وأخلص لهم ، وأحرص على رضاهم وأحس الفرح يغمر نفسي إذا قدمت لواحد منهم خيراً . أو درأت عنه شراً ويتصدع فؤادي إن وجدت أحدهم متألماً ، فلا أني أخفف ألمه . وأدفع عنه حزنه ؛ وكنت أعيش بهم ولهم ومعهم

ووضعت بين أيديهم رأسي أطلعهم على كل ما اختزنته فيه هذه السنين الطوال . أستغل أضعف المناسبات لأطلعهم على جمال الأدب العربي ، وعظمة التراث الاسلامي ، وقيمة التفكير الحديث ، واتجاه النقد الجديد ، وأعلمهم الاستقلال الفكري ، وأحفزهم إلى المناقشة ، ولا أستعمل في إقناعهم سلطة المدرس لأن ذلك ضعف ، ولكن أستعمل قوة المحق ولسن الجدل النظار . وأعترف لهم بالحق إذا ظهر على لسانهم ؛ وأقر بأني لا أدري ما لا أكون أدريه ... وأبعث في ملكاتهم المهملة ، وأشجعهم على الانتاج والنشر ...

وكان زملاؤنا من المدرسين يحذرونني عواقب هذه الطريقة لأن الطلاب (في رأيهم) لا يقدرون قيمة الحرية واللطف ، ويحسونها عجزاً وضعفاً ويتخذونها سبيلا إلى الشغب ولكني وجدتهم يقدرون قيمتها ، ويحترمون المدرس العادل العالم اللطيف ، أكثر مما يحترمون المدرس الجبار العنيف ، ووجدت هذه الطريقة قد أجدت جدى كبيراً ، فأقبل الطلاب على الأدب وقد كانوا عنه منصرفين ، وصار أحب الدروس إليهم وقد كانوا يكرهونه ، ونشأ فيهم كتاب وشعراء ونقاد يؤمل منهم بعث الحياة الأدبية في العراق في بضع سنين ...

وضعت بين أيديهم رأسي وقلبي ، فلما أثمرا الثمرة ولما تحركت هذه العيون بالاخلاص ، وأقبلت هذه القلوب بالحب وتفتحت هذه الأفواه عن أجمل أحاديث العلم والأدب والود ... ولما محيت تلك الفروق كلها . وزال التكلف بين المدرس والطلاب ، ولم يبق إلا إخوة يعيش الواحد منهم للجميع ، ويعمل الجميع للواحد ... جاء الأمر بنقلي إلى البصرة ...

* * *

وهأنذا الآن في البصرة في هذه الغرفة الصغيرة أذكر مجالسنا على شاطىء دجلة فيخفق قلبي خفقانا شديداً ، وأتمثل أمامي صورة أخي الشاعر وهو ينشدنا أعذب أشعاره التي تشبه في رقتها نسيم الماء الرخي اللين ، وفي انسيابها دجلة التي خلع عليها الغروب ثوبا منسوجاً من خيوط النور فيه مائة لون ... واذكر (ليلة المطر) ... ليلة جلسنا في هذه الحديقة التي تنبسط وراء المطار المدني في بغداد ، وأمامنا الفضاء الذي يمتد إلى ... إلى دمشق ، لا يحجبه شيء ؛ وكان مصباح المطار الأحمر القوي يريق ضوءه على الحديقة ومن فيها فيجعلها كأنها بقعة من عالم مسحور ، لا يشبهه شيء ، ولكنه جميل أخاذ يملأ النفس نشوة وسكرا ؛ وكانت الطبيعة تبدو أمامنا كأنها لوحة خطتها ريشة أبرع المصورين ؛ فهذه الحرة العجيبة ، وزرقة السماء الصافية ، وسواد الليل عند الأفق ، والنساء بثيابهن الملونة المبرقشة ، والنادبون بقمصهم البيض ، يمشون على الحشائش . لا يسمع لهم صوت ، يتكلمون همساً ...

وكان النسيم رخياً ناعشاً ، تميل منه الأزهار فتفوح من أثوابها رائحة العطر ، فتطفو على هذا النسيم والأضواء البعيدة ـ كأنها تائهة في الظلام فهي ترتجف من الخوف ، وقد جمعت الطبيعة في تلك الليلة سحرها كله : صفاء السماء ، وسكون الليل : والربيع الذي زخرف هذه الحديقة ورصعها بالورد والزهر ، ووضع فيها خلاصة فنه ونتاج عبقريته

وكان كل شيء عاشقاً قد سكر بخمرة الجمال ، وراح يحلم . فالصحراء الواسعة قد سكرت وتغلغلت في الظلام منفردة تحلم بالظل والماء ، والسهول المجاورة راحت تحلم بربيع دائم ، وعاد الأمس حياً حالما بالخلود ، وأطل الغد نشوان يحلم بليلة مثل هذه الليلة ...

وكنت أحلم ... فما راعني وهبط بي من سماء أحلامي إلا ضحكة عذبة رقيقة كأنها رنين الذهب ، لم أسمعها بأذني ولكني رأيتها بعيني تتدحرج طافية على وجه النسيم الأحمر حتى غاصت

فى الظلام الساكن ، وعاد الصمت ... وكانت ضحكة عاشقين قد نسيا الوجود وما فيه ، وغابا فى حلم حى يقظان !

فهاج ذلك صديقى الشاعر فانحنى علىّ ، وألقى فى أذنى إحدى أغانيه (الجديدة)

« زرعت روض شفتى بالقبل فأزهر وأينع ، ولكن لم يقطفه أحد فذوى وجف

« وأعددت سرير الحب فى قلبى وضمخته بالعطر ، ولكن لم يرجع عليه أحد فعلاه الغبار

« كأن الناس لما خلقوا قسموا أنصافاً ، ثم نثروا فى الحياة ، فمن وجد نصفه صار إنسانا ، ومن وجد غيره كان مسخاً ، ومن لم يجد بقى نصف إنسان

« فأين أنت يا نصفى الآخر ؟

« لقد ضاع النصف الذى فيه قلبى ، فمن هى التى يخفق قلبى فى صدرها

« من هى التى تنظر بعينى ، وتستمع بأذنى ؟

« من هي التى لم أرها أبداً ، ولا أرى غيرها أبداً ؟ »

* * *

شعرت بأن أغانى الشاعر قد سمت بى إلى عالم كله خير وجمال ، وشعرت بنشوة عجيبة وعلمت أن ما أنا فيه غاية السعادة ونهاية السمو ، وإذا أنا أسمع نغمة موسيقية فاتنة عادت تسمو بى ، حتى رأيت ما كنت فيه أرضاً وهذى سماء ، فذكرت كلمة فاجنر : « تبدأ الموسيقى حيث ينتهى الشعر » (١)

واختلط علينا الجمال ، فصار باقة واحدة ، قد اجتمع فيها همس الحب وألحان الموسيقى بعبق الزهر ، وأريج العطر ، بخيوط الأشعة ، وروعة الألوان ، فصرنا نسمع ما يرى ، ونشم ما يسمع ، وصارت الحواس كلها حاسة واحدة ... هى حاسة الجمال !

* * *

وهأنذا أذكر مئات من الذكريات ، وأتمثل طلابى كلهم أمامى حتى إنى لأمد يدى لأصافحهم فلا تقبض يدى إلا الهواء

فارتد مذعوراً وأجلس يائساً ... لقد غدا هؤلاء الفتيان جزءاً منى لأنهم عاشوا فى نفسى ذكريات ... كما عشت فى نفوسهم ذكرى ، فنحن مجتمعون ولو نأت بنا الديار ...

وهأنذا آلف هذا البلد الذى كرهته واجتويته ، وأصبر على شظف العيش فيه من أجل هؤلاء الطلاب الذين أحبونى هم أيضاً ... أحببتهم ، وتعلقوا بى ، فلا يأتون المدرسة إلا لسماع درسى ، فان لم يكن لى درس أقاموا فى بيوتهم يجدون ويستعدون للامتحان ، ولا يدخرون وسعاً فى إسداء يد إلى أو دفع الألم عنى ... ويحرصون على راحتى أكثر من حرصهم على نجاحهم فى امتحانهم ، ويفضلون كلمة منى على كلمة تقولها القانون ...

أصبر من أجل هؤلاء الذين أغرس الآن حبهم فى قلبى لأنتزعه منه غداً وأدعه جريحاً ... أفهذه حياة المعلم ؟ ماذا يبقى من قلب فى كل مدرسة منه قطعة ؟

هنيئاً لمعلم ليس له قلب ... ...

ويا ويل المعلم إذا كان إنساناً ... ...

« البصرة » **على الطنطاوى**

(١) وسنرى قراء الرسالة ان شاء الله فى مقال آخر ان الشعور الذى يبدأ حيث ينتهى الموسيقى .

فى الطريق

كتاب جديد يصدر فى سبتمبر

بقلم الأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

أكثر من ٦٠ قصة فى ٥٠٠ صفحة

قيمة الاشتراك فيه ١٠ قروش ، الثمن بعد الطبع ١٥ قرشاً

ترسل قيمة الاشتراك بعنوان المؤلف

بشارع فاروق رقم ٢٢١ بمصر

الاشتراك يقفل فى منتصف أغسطس